مراجعة كتاب

«رحلة تكشف أساطير المعالم المعمارية المقدسية وهويتها وفنونها»

تاريخ النشر: ٢٠٢٥/١٢/٢٠م (العدد (٢٩)، شتاء ٢٠٢٦م)

مراجعة: عزيز العصا

سكرتير تحرير مجلة المقدسية

المؤلف: يوسف سعيد النتشة/ مدير مركز دراسات القدس – جامعة القدس

سنة النشر: ٢٠٢٥م.

حجم الكتاب: ٥٦٠ صفحة، من القطع العادي (٢٤سم × ١٧سم).

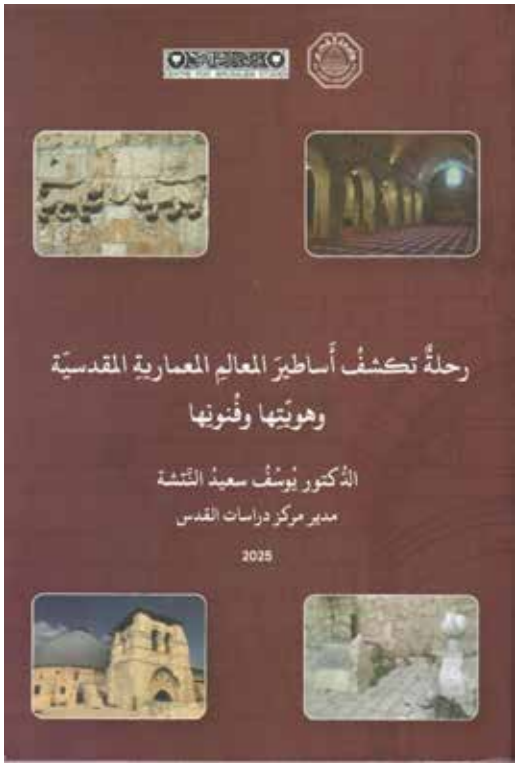

قبل أن يشرع المؤلف في تفاصيل العنوان الرئيس للكتاب، قدّم لكتابه بما حجمه (٣٠) صفحة على شكل **تمهيد**، حول تاريخ القدس المعماري، الذي حصره في حدود البلدة القديمة من القدس، بما يضم السور وما أحاط به من مبانٍ، وحاجة الباحثين والمهتمين للمعرفة في هذا المجال، الأمر الذي تبناه مركز دراسات القدس في جامعة القدس. ويُتبع بـ «**نظرة عجلى على مكانة القدس وتاريخها**»، التي تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، وقد تنازع هذه المكانة ثلاث ديانات، تنافست على تبني المدينة المقدسة، وصولًا إلى محاولات نفي الآخر من قبل دولة الاحتلال، والسعي إلى تهويد المدينة وفق منطق القوة. ويختم هذا التقديم بـ «**إلماعة على تخطيط مدينة القدس، وأبرز العوامل التي أثرت في تطور عمارتها**»؛ إذ استعرض طوبوغرافية المدينة، التي تتألف من هضاب عدّة وثلاثة وديان، وعوامل تطورها المعماريّ (الكتاب، ص: ١٠-٤٠). وهذه الوديان هي: **الواد الأول**، من الشرق، وهو المعروف حاليًّا بـ «واد جهنّم أو واد النار» وله عدة نسميات تاريخية. و**الواد الثاني** يحدّ المدينة من الغرب، يسمى «واد الربابة». و**الواد الثالث**، يجري في وسط المدينة، له عدة نسميات تاريخية، منها: وادي الطواحين، والدّرب الأعظم، والدرب السلطاني (الكتاب، ص: ٣٣-٣٤).

ومن طريف ما أورده المؤلف للدلالة على صِغَر مساحة البلدة القديمة من القدس، أن مسافة أبعد نقطة فيها عن المسجد الأقصى المبارك، يمكن أن يقطعها المصلي -لحوالى ١٠ دقائق مشيًا جادًّا- بين الأذان والإقامة لجميع الصلوات (الكتاب، ص: ٤٠).

أما بخصوص الموضوع الرئيس للكتاب، فقد توزع على العناوين الرئيسة الآتية:

أولًا: الأساطير التي ألصقت ببعض ببعض معالم القدس المعمارية

لقد تتبع المؤلف -النتشة- الأساطير، التي يرى في بعضها تشويهًا للتراث العربي الإسلامي، وذات مضامين غير إنسانية، بهدف إعادة التراث -العربيّ الإسلاميّ- إلى أصوله وواقعيته. تنقّل في هذا الموضوع المؤلف من العام إلى الخاص؛ إذ قدّم لهذا الموضوع الواسع بذكر أساطير حول أعداد حارات القدس، التي تراوحت بين أربع حارات وسبع وثلاثين حارة. فأسطورة تقسيم القدس إلى الحارات الأربع المتداولة، والأكثر رواجًا، تعود إلى الإنجليز، الذين قسموها على خلفية دينية: حارة المسلمين، وحارة النصارى، وحارة الأرمن وحارة اليهود. ثم جاء من جعلها تسع حارات، بإضافة حارات المغاربة، والأفارقة، والدوماريّ -غجر القدس- والهنود، واليونان الأرثوذكس. وفي العهد المملوكي، سمّى مؤرخ ذلك العصر «مجير الدين الحنبلي، في القرن الرابع عشر، سبعا وثلاثين حارة، لا يتسع المجال لذكرها (الكتاب، ص: ٤١-٥٠).

يتوقف النتشة عند مفهوم الحارات الأربع، الذي انطلق منذ بداية القرن التاسع عشر، مبينًا أنه انعكاس للتغيرات القهرية التي تمر بها المدينة في هذه الأيام (الكتاب، ص: ٥٦).

أما **الأساطير ذات الصلة بسور القدس**، فقد أورد منها «أسطورة قبريّ باب الخليل وادعاء أنهما قبرا مهندسيّ السور»؛ إذ ادّعت الأسطورة أن المهندسيْن أعدما على يد السلطان العثماني، وبعد تتبع دقيق يحسم المؤلف -النتشة- أمر هذه الأسطورة، التي تناولها وتداولها كتّاب غربيون، بأنها باطلة، ولا تعكس أي جزء من الحقيقة

(الكتاب، ص: ٥٧، ٦٤). وهناك أسطورة «أسود باب الأسباط»، التي تفيد بأن أسود باب الأسباط هي تجسيد لحلم رأى فيه السلطان سليم الأول أنها تهاجمه. وهناك روايات تنسبها إلى السلطان سليمان القانوني (الكتاب، ص: ٧٠). وبعد تفكيك هذه الأسطورة، وتحليلها من مختلف الجوانب، توصل المؤلف إلى أنها خلط بين الحقيقة والخيال، وأن رمزيتها تظهر مكانة القدس الدينية لدى السلطة العثمانية (الكتاب، ص: ٦٩-٧٠، ٧٥-٧٦).

ثانيًا: آراء خاطئة نسبت إلى بعضٍ من معالم القدس المعمارية

المقصود بهذا الموضوع، أن هناك أراء تتعلق بمجموعة من المعالم، لا تستند إلى أسس تاريخية أو معمارية (الكتاب، ص: ٧٦). ولعلّ أكثرها تعقيدًا، تلك الآراء المتعلقة بالعمارة المنسوبة إلى كل من النبيّين سليمان وداود عليهما السلام، وتبيّن للمؤلف -النتشة- أن كثيرًا من المعالم المنسوبة لهما تعود إلى قرون متأخرة، ومنها ما ينتسب إلى عصور ليست ذات صلة بهذيْن النبيين عليهما السلام (الكتاب، ص: ٨٠-٨١). كما تتبع المؤلف آراء خاطئة تتعلق بقلعة القدس، التي يطلق عليها الموروث الديني اليهودي والمسيحي أنها «برج داود» (الكتاب، ص: ٨١). وكنيسة القيامة، التي كان يطلق عليها «كنيسة القمامة»، وقد توصل «النتشة» إلى أن معنى قمامة له أكثر من مدلول، وفقا لقواميس اللغة العربية، وقد تغير استخدامه عبر الزمن. وبذلك، لم يكن اسما تحقيريا أو ازدرائيا في الأصل، بل أنه كان يحمل معنى إيجابيا مرتبطا بالجامعية والرفعة، لكن تغير دلالته مع الزمن أدى إلى سوء فهمه (الكتاب، ص: ٩٣). وهناك آراء خاطئة تتعلق بالمصلى

المرواني، ومهندس القدس «سنان باشا»، ومصمم باب العمود.

ثالثًا: المسطرة التاريخية لمعالم القدس المعمارية

بعد الجهد المتميز، والمثير للاعجاب، الذي بذله المؤلف -النتشة- من أجل تنقية المعالم المعمارية المقدسية من أثر الأساطير وفعلها السلبي على الحقائق التاريخية لمعالم القدس المعمارية من جانب، وانعكاس الآراء الخاطئة عليها من الجانب الآخر، انتقل إلى وضع حقائق تلك المعالم أمام القارئ، بما فيها من عمق تاريخي، وانتماء حضاريّ، ومشهد جماليّ، لكي تصبح جزءًا من ثقافته -القارئ- الدينية، والتاريخية، والوطنية.

وعليه، سنستعرض في هذا البند -ثالثًا- ما جاء في هذا السّفر الجميل، الذي يزخر بالمعرفة العلمية الدقيقة، والصحيحة التي لا تضاهى.

صمم المؤلف مسطرة زمنية مهمة، وزّع عليها معالم القدس المعمارية التراثية، وعددها (٢٢٥) معلمًا، تشكل مصدرًا موثوقًا للباحثين، تبدأ من عام ٦٣ ق. م حتى عام ١٩٦٧، وهي الفترات الرومانية والبيزنطية (٦٣ ق. م حتى ٦٣٨م، تضم ٩ معالم)، والإسلامية الأولى (الأموية – السلاجقة) (٦٣٨م حتى ١٠٩٩م، تضم ٢٠ معلمًا)، واللإفرنجية (١٩٩م حتى ١١٨٧م، تضم ١١ معلمًا)، والاسلامية الثانية: الأيوبية (١١٨٧محتى ١٢٥م، تضم ٢٥ معلمًا)، والفترة المملوكية (١٢٥٠م حتى ١٥١٧م، ضم ٧٨ معلمًا)، والفترة العثمانية (١٥١٧م حى ١٩١٧م، تضم ٦٠ معلمًا)، وأضاف (٢٢ معلمًا) أطلق عليها معالم القرن التاسع عشر. أما فترتي الانتداب البريطاني (١٩١٧-

١٩٤٨م)، والحكم الأردني (١٩٤٨م-١٩٦٧م)، فلم تشهدا على إنشاء معالم تضاهي المعالم المذكورة في الفترات السابقة (الكتاب، ص: ٩٤-١٠٥).

يظهر من تلك الأعداد أن الفترة المملوكية تحظى بأكبر نسبة، تصل إلى ٣٥٪ من تلك المعالم، يليها الفترة العثمانية (٢٦٪)، ثم الفترة الأيوبية (١١٪)، يليها معالم القرن التاسع عشر، بنسبة ١٠٪، ثم الفترة الإسلمية الممتدة بين الأمويين إلى السلاجقة بنسبة (٩٪)، يليها معالم فترة الفرنجة (بنسبة ٥٪)، وأخيرًا فترة الرومان والبيزنطيين بنسبة ٤٪ (الكتاب، ص: ١١٠-١١٧),

وفي جهد إضافيّ مهم، أجرى «النتشة» في كتابه هذا قراءة إحصائية – تحليلية لوظائف معالم القدس المعمارية، أظهرت أن **رُبع** تلك المعالم لأهداف التعليم والتصوف والمجاورة، و**ربعها** عمارة إسلامية، (٤٠٪) منها موزعة -بالتساوي تقريبًا- على أغراض الرعاية الاجتماعية، والعمرة العسكرية، ولأغراض تجارية ومنوعة. أما **العُشر** المتبقي فهو عمارة مسيحية، تشمل تجمّعات الكنائسط، والأديرة، والبطريركيات (الكتاب، ص: ١٠٦-١٠٩).

وقراءة تحليلية ثالثة لتلك المعالم، وفق بُناة القدس ورُعاة معالمها المعمارية، تبيّن أن (٣١٪) منهم هم من الأمراء والحكّام، يليهم الحكام والسلاطين بنسبة (٣٠٪)، ثم ١٦٪ من البُناة هم رجال دين، و١٥٪ غير معلومين أو مقطوع بهم، وأخيرًا أسهمت النساء إلى جانب المواطنين ف بناء ما نسبته ٨٪ من معالم القدس المعمارية (الكتاب، ص: ١١٧-١٢٠). وفي قراءة تحليلية رابعة للمؤلف، وفق مواقع تلك المعالم، تبيّن أن ٤٢٪ (أي ٩٤ مبنى) منها في البلدة

القديمة من القدس، و٣٠٪ منها (٦٨ معلم) داخل سور المسجد الأقصى المبارك، وأن ١٥٪ (٣٤ مبنى) على حدود سور المسجد الأقصى والطرق المؤدية إليه. وحظيت كنيسة القيامة حول مجمّعها بما نسبته ٧٪ (١٥ معلمًا)، وهناك (١٤ معلمًا)؛ أي بنسبة ٦٪ من معالم القدس المعمارية تقع على تخوم سور القدس (الكتاب، ص: ١٢١-١٢٤). ويختم المؤلف هذا الباب باستعراض الثراء الزخرفي والتقشف المعماري لمعالم القدس المعمارية.

رابعًا: فهرس معالم القدس المعمارية

يأتي هذا العنوان للتعبير عن فهرسة قام بها المؤلف لمعالم القدس المعمارية الـ (٢٢٥) الموصوفة أعلاه، وحظي كل معلم منها بلوحة تبيّن معالم المعلم، ثم أسمائه، فالموقع، ثم ماهيته وأهميته، ومخططات خاصة به إن وجدت. وقد شكل هذا الفهرس -الضخم- حوالى ٦٨٪ من حجم الكتاب؛ إذ غطى (٣٨٠) صفحة. (الكتاب، ص: ١٣١-٥١٠) ثم نصل في هذا السّفر إلى الملاحق، التي استعرض فيها المؤلف ملحقًا عن كنيسة القيامة (الكتاب، ص: ٥١١-٥٢٤)، وملحقًا بالمباني اليهودية في حارة اليهود بالقدس (الكتاب، ص: ٥٢٥-٥٣٠)، ويختم المؤلف بملحق بـ (٦٤) اصطلاحًا من الاصطلاحات المعمارية.

ختامًا،

يشير المؤلف بحق أن تراث القدس المعماري قد حظي باهتمام واسع، وقد تعمق ذلك في النصف الثاني من القرن الماضي، حيث خضع لدراسات معمقة وفق أدق المناهج الأكاديمية، مدعومة بالصور والمخططات والوثائق التي تساعد على فهمه وتحليله وتوثيقه

(الكتـــاب، ص: ١٠).

أمـــا بخصـــوص هـــذا السّـــفر، فقـــد تميّـــز عـــن غـــيره مـــن الدراســـات بشـــمولية البيانـــات والبينـــات والتفاصيـــل، وقـــد تجـــلّى الجهـــد العلمـــي في تتبـــع الأســـاطير، والآراء الخاطئـــة التـــي الصقـــت بمعالـــم القـــدس المعماريـــة، وتفنيدهـــا. وذلـــك قبـــل أن يـــشرع في حـــصر تلـــك المعالـــم، وتبيـــان توزيعاتهـــا الزمانيـــة والمكانيـــة والتعريـــف بهـــا. وتعمّـــق المؤلـــف -النتشـــة- في توفـــير مزيـــد مـــن المعرفـــة والمعلوماتيـــة ذات الطابـــع التحليـــلي والإحصائـــي للمعالـــم المقدســـية، وفـــق أربـــع متغـــيرات، هـــي: زمـــن الإنشـــاء، ووظيفـــة المعلـــم -طبيعـــة اســـتخدامه و/أو الهـــدف مـــن إنشـــائه، وموقـــع المعلـــم، ومنشـــئ المعلـــم.

إن هـــذه المعلومـــات ينـــدر أن اجتمعـــت بـــين دفتـــيّ كتـــاب حـــول الـــتراث المعمـــاري المقـــدسي، كمـــا اجتمعـــت بـــين دفتـــيّ هـــذا الكتـــاب للباحـــث المقـــدسيّ د. يوســـف النتشـــة.